بمناسبة المولد النبوى :

تطور البديعيات
في مدح الرسول

الأستاذ حامد حفنى داود الجرجاوى

كان للقرآن فى صدر الإسلام معجزته الكبرى حين نشأت علوم اللغة والأدب لتفسر وجوه إعجازه وتوضح بلاغه آياته وسوره . وبسبب هذه الأجواء العلمية — التى حاكها حولها ونسج خيوطها بين يديه فى بلاغته الساخرة وآياته الباهرة — كان الغاية الكبرى التى تنتهى إليها هذه العلوم وتدرس من أجلها هذه الفنون ؛ وقد كانت الوسائل القوية والوشائج المتينة التى تصل بالدارس إلى معانى القرآن وفهم أسراره وكشف مقاصده ، فاللغة والنحو والصرف والبلاغة وغيرها من علوم الأدب — مضافا إليها علوم الشريعة وعلوم الحقيقة — وجدت من هذه الغاية الكبرى مبدأ لتكوينها وسببا قويا لنشأتها ، كما أنها جميعا وجدت من تطور الدراسات القرآنية خطوطا أولية تمثل تطور حياتها وترسم طريق مستقبلها

ولم يكد القرآن ينتهى من أداء هذه الرسالة الإعجازية حتى تضافرت معه قوة جديدة تصور نفس الغاية هى (المدائح النبوية) فقد كان لهذه الأخيرة صداها منذ القرن الأول حين نظم كعب ابن زهير (٢٦ هـ) قصيدة « البردة » بين يدى الرسول الأعظم ، فكانت قصيدته أول قصيدة كلاسيكية تقليدية فى مدح الرسول . ثم جاءت على إثرها قصائد الشعراء فى القرون المتعاقبة

وفى القرن الثامن اشتقت المدائح النبوية طريقا خاصا بها حيث اصطبغت بالصناعة اللفظية وعنى واضعوها بوجوه المحسنات البديعية . ومن هنا حملت المدائح النبوية الرسالة العلمية التى حمل مثلها القرآن فى علوم الأدب منذ سبعة قرون مضت . وبينما كانت « رسالة القرآن » رسالة عامة انتفعنا من ورائها فى إحياء علوم الدين وعلوم الأدب كانت « رسالة المدائح النبوية » رسالة خاصة انتفعنا بها فى تطور علوم البلاغة وفيما أحدثه الشعراء من ضروب البديع التى اصطنعوها فى مدائحهم

* * *

فى هذه الحقبة من القرن الثامن أخذ القوم يخرجون مدائحهم النبوية فى قالب خاص من علوم البديع حتى سميت « البديعيات » . وكانت هذه البديعيات أشبه بكتب مفردة سجلت فيها فنون البديع وأنواعه ومصطلحاته ، وظلت هذه البديعيات دستور البديع وديوان فنونه وسجل مصطلحاته فى سائر القرون التى تلت القرن الثامن حتى وصلت إلى عصرنا هذا

وأول بديعية وصل إليها تحقيقنا فى القرن الثامن هى التى نظمها صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ، شرحها صاحبها فى كتاب خاص سماه « النتائج الإلهية فى شرح الكافية البديعية » . قال ابن حجر العسقلانى : « . . . وبديعيته مشهورة وكذا شرحها ، وذكر فيه أنه استمدها من مائة وأربعين

إلى الكلام عن بتلان وما زال ينتقل من بتلان إلى توما ومن الأغنام إلى القماش حتى ضجر القاضى وطلب إليه السكوت . وهنا تظهر براعة المحامى بتلان ويظهر خبثه ومكره ويستند إلى حالة جيوم النفسية وما ظهر عليه من اضطراب ويتأسف بأن تسمع المحكمة الموقرة إلى مثل هذا المجنون الذى يخلط فى كلامه ويتهم الناس الأشراف . فيحتد جيوم ويصرخ مطالبا بقماشه ومطالبا بأغنامه ويظهر اضطرابه فى كلامه ، فينتهره القاضى ويطلب إليه بل يأمر بإخراجه من قاعة المحكمة فقد سقطت دعواه لسخافته

وهنا ينتصر المحامى بتلان وتبرئ المحكمة ساحة الراعى توما ويخرج الظافران . ثم يأخذ المحامى بتلان الراعى توما ناحية ويطلب إليه أن يسلمه ثمن أنعابه ، فيقهقه الراعى توما ويجيبه كما أجاب القاضى مقلدا صوت الأغنام « آآآ » فيجن بتلان من الغيظ ويحتد مزمجرا ويطلب ثمن الأنعاب فلا يجاوبه الراعى الخبيث إلا بـ (آآآ).

عبد الغنى الأنبارى
جامعة فؤاد الأول كلية الآداب

كتابا » (١) وبدأ الحلى بديميته مستهلها ما جاء ببردة « البوصيرى » من ذكر الأماكن الحجازية كذى سلم وسلع والعلم فقال :

إن جئت سلما فسل عن جيرة العلم واقرأ السلام على عرب بذى سلم

وذلك تقليد قديم احتذاه الشعراء من قبل صفى الدين الحلى ثم أصبح نظاما تقليديا استنه الشعراء لأنفسهم من بعده . وفى هذا البيت يشير الشاعر إلى براعة المطلع والتجنيس المركب والمطلق . ثم ينتقل بك إلى تجنيس التلفيق فى البيت الثانى :

فقد ضمنت وجود الدمع من عدم لهم ولم أستطع من ذاك منع دم

ويستمر صفى الدين فى هذا النحو حتى ينتهى من بديميته فى مائة وخمسة وأربعين بيتا ، يذكر فيها سائر فنون البديع التى عرفت فى زمنه : كالذيل واللاحق ، والتام والمطرف ، والمصحف والمحرف ، واللفظى والمقلوب ، والمعنوى ، والطباق ، والاستطراد ، والتوشيح ، والمقابلة ، واللف والنشر ، والتبديل ، والالتفات ، والهزل الذى يراد به الجد ، وعتاب المرء نفسه ، ورد العجز على الصدر . . . وهكذا يسير فى بديميته المشهورة حتى يذكر لنا مائة وخمسة وأربعين فنا من فنون البديع ، فيخص كل بيت منها بفن من هذه الفنون . ويختم بديميته ببراعة الختام فيقول فى البيت الأخير منها :

فان سمحت فدحى فيك موجبه وإن شقيت فذنبى موجب الفقم (٢)

ومن ذلك نعلم أن المدائح النبوية خدمت علوم البلاغة فكانت حافزاً قوياً على نمائها وتطورها فوصلت إلى هذا العدد الذى ذكره الحلى فى بديميته . وقد كانت للحلى مدرسة تبعه فيها تلاميذه فى تدبيج البديميات كالصلاح الصفدى (٧٦٤ هـ) وابن جابر الأندلسى (٧٨٠ هـ) الذى وضع بديميته فى مائة وسبعة وسبعين بيتا (٣) وعز الدين الموصلى (٧٨٩ هـ) الذى وضع بديمية فى مائة وخمسة وثلاثين بيتا . (٤)

* * *

وفى القرن التاسع كان لابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ من الشأن ما كان لسلفه الحلى فى القرن الثامن ، فكلاهما كان زعيم حلبة الشعراء الناهلين من بحور البديع ، وكلاهما كان ذا خطوة فى الأدب واطلاع واسع فى فنون البلاغة ؛ إلا أن ابن حجة كان كما يحدثنا : ابن العماد الحنبلى والأستاذ بروكلمان — مزريا بغيره من الشعراء ، ينظر إلى شعراء عصره كأحد تلامذته . (١) ولقد ولقد كان لديوانه « ثمرات ونمار الأوراق » شأن كبير . (٢) وتسمى بديميته « بديمية ابن حجة الحموى أو تقديم أبى بكر » سار فيها على طريقة الحلى ، ونقع فى مائة وعشرين بيتا . ثم شرحها فى كتاب آخر سماه « خزانة الأدب وغاية الأدب » .

ونحا هذا النحو شرف الدين ابن المقرئ (٨٣٧ هـ) الذى وضع بديمية أخرى تقع فى مائه واثنين وتربعين بيتاً ، شرحها فى كتاب سماه « شرح الفريدة الجامعة للمعانى الرائعة » (٣)

* * *

ثم كان من نتيجة دراسة المدائح الدينية فى هذه الصورة التى لمسناها خلال القرنين الثامن والتاسع أن تعمق القوم فى دراسة البديع دراسة تحليلية خاصة . وبذلك كانت دراسة البديع فى القرن العاشر خطوة واسعة تمثل تطور البديعيات فى ذلك القرن. فظهرت « الطريقة التحليلية » فى دراستها فى شخصية عظيمة عرفت بالأبحاث الخاصة والمؤلفات المفردة بالفنون المختلفة — هى شخصية جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ .

وقد بدأ السيوطى بديميته على عادة الشعراء ببراعة الاستهلال فقال :

من العقيق ومن تذكار ذى سلم براعة العين فى استهلالها بدم (٤)

واختتمها بقوله :

واكتب مدا الدهر فى الدنيا لذا حسنا حتى أرى عند موتى حسن مختتمى

هى بديمية رصينة تقع فى مائة وثلاثة وثلاثين بيتاً عارض فيها بديمية ابن حجة الحموى المسماة « تقديم أبى بكر » . ويلمس

(١) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٦٩ س ١٣
(٢) بديمية الحلى (انظر ١٢٨ بلاغة ـ مخطوط قديم بدار الكتب)
(٣) بديمية ابن جابر (انظر ٦٨٥ بلاغية)
(٤) لآلىء الترصيع فى علم البديع ص ٢٤٦

(١) شذرات الذهب ٧ / ٢١٩
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ١ / ١٣٠
(٣) الفريدة الجامعة (انظر ٣٠٠ بلاغة ـ مخطوط قديم بدار الكتب)
(٤) بديمية السيوطى ص ٢ س ٩